Received: 15-10-2023
Accepted: 30-04-2024
Published: June 2024

المجلة العربية، جامعة داكا
المجلد ٢٤، العدد ٢٧، يونيو ٢٠٢٣ م، ص.١٤١– ١٥٤
DOI: https://doi.org/10.62295/mazallah.v24i27.49

إطلالة على البعد الوصفي في شعر ابن زيدون الأندلسي

الدكتور قمر الزمان شميم *

A view of the descriptive dimension in the poetry of Ibn Zaidun

Abstract

The study aims to reveal various dimensions of description that appeared in the poetry of prominent Andalusian Poet "Ibn Zaidun" (1003-1071). He was a distinguished figure and well-known personality in Andalusian Arabic Poetry. He played a significant role in upholding the prestige of Arabic Poetry in the external part of its homeland by developing a poetic multipurpose side, particularly a stylistic and subjective viewpoint. On the subjective side, the description is the most important topic in which Ibn Zaidun showed his charismatic poetic genius. He focused his imagination and emotion on this point based on his genuine consideration with very skillfulness. This article tries to clarify the characteristics of this poet's descriptive poetic geniality and various dimensions of description in his poetry depending on the interpretation of his poems in this context.

***Keywords**:* Description, Ibn Zaidun, Poetic geniuses, Subjective viewpoint, Descriptive dimension.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أبعاد الوصف المختلفة التي ظهرت في شعر الشاعر الأندلسي البارز "ابن زيدون" (١٠٠٣–١٠٧١م). كان ابن زيدون شخصية بارزة وعبقرية معروفة في الشعر العربي الأندلسي. وكان له دور كبير في الترقية لمجد الشعر العربي في خارج وطنه من خلال تطوير الجانب الشعري متعدد الأغراض، وخاصة من جهة الأسلوبية والذاتية. في الجانب الموضوعي فإن الوصف هو الموضوع الأهم الذي أظهر فيه ابن زيدون عبقريته الشعرية الديناميكية. لقد ركز خياله وعاطفته في هذه النقطة بناءً على اعتباره الحقيقي بمهارة شديدة. يحاول هذا المقال توضيح سمات العبقرية الشعرية الوصفية لهذا الشاعر والأبعاد الوصفية المتنوعة في شعره من خلال شرح القصائد التي نظمها في هذا السياق.

الألفاظ المفتاحية: الوصف، ابن زيدون، العبقرية الشعرية، المنظور الموضوعي، البعد الوصفي.

* أستاذ مشارك، قسم العربية، جامعة داكا، بنغلاديش
shamimdu2@yahoo.com

التقديم

كان ابن زيدون أعظم شعراء وأدباء العرب البارزين في الأندلس، كما أنه كان وزيرًا وسياسيا في آن واحد في مختلف البلاط. وقد لعب دورا فعالا في الأدب العربي الأندلسي، وساهم خدمات بارزة في ترقية الأدب العربي في البقعة الغربية خارج العرب، ونظم قصائد كثيرة في موضوعات مختلفة من الفخر والحماسة والوصف والرثاء والنسيب والهجاء وما إلى ذلك. ولكن ظهرت براعته الشعرية ومهارته الأدبية في فن الوصف، لأنه نشأ وترعرع في مدينة قرطبة، وكانت القرطبة معروفة بجمالها الطبيعي، وثقافتها الغنية في ذلك الوقت، لهذا كان تأثيرها على إبداعاته بعيد المدى. فهذه الدراسة تحاول أن تناقش جوانب الوصف في شعر تلك الشخصية البارزة الذي نظمه في حياته الطويلة في هذا الموضوع. كما أنها تسعى أن تُشَرِّح معنى الوصف والعبقرية الشعرية لهذا الشاعر الشهير الأندلسي بالإضافة إلى ذكر تعريفه. فأولا هذه المقالة تحاول أن تقدم بعض الكلمات حول الوصف ثم عن ابن زيدون. والله الموفق والمعين.

مفهوم الوصف

الوصف هو أهم الموضوعات في الأدب العربي من العصر الجاهلي حتى اليوم. قد حاول كل شاعر أو أديب من كل عصر من العصور الأدبية أن يتناول هذا الموضوع في إنتاجه الأدبي باهتمام بالغ. فقبل المناقشة حول الموضوع قُدّم أولا بعض الأشياء لتشريح فن الوصف أمام القراء والدارسين والباحثين لكى يستطيعوا أن يكونوا على كامل الدراية:

الوصف لغة

الوصف يجذر من مادة وَصَفَ يصِفُ، ويأتي بمعان مختلفة في المعاجم العربية. فذُكر في "المعجم الوسيط": وصف الشيء: وصفا، وصفة: نعته بما فيه، (Anīs 2004, 1036). وقد جاء في "لسان العرب": وصَف الشيء له وعليه وصفا وصفة: حلَّاها، (Ibn Manẓūr 2005, 4849). ومنه قوله جلَ وعلا: "وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ" (Al-Qūrān, 19: 13). ووردت في "القاموس المحيط": وصَفَه، يصفُهُ وصفًا وصِفةً، أيْ نَعَتَهُ، (Al-Fīrūzābādī 2008, 1758). وقد ثبت مما سبق ذكره أن كلمة "الوصف" تدلّ على المعاني الآتية: النعت، وحلاها، والكشف، والإظهار وغيرها.

الوصف اصطلاحا

الوصف مصطلح أدبي يقوم الشاعر أو الأديب ببيان ما يفكر في قلبه بالنظر إلى الأشياء المنظور وغير المنظور. ويجمل بنا أن نذكر بعض تعريفات الوصف لمختلف الأدباء والنقاد. وقد عرفه أحمد الهاشمي بقوله: "الوصف عبارة عن بيان الأمر باستيعاب أحواله وضروب نُعُوته المثلة له" (Al-Hāshimī 1969, 326). وذكر حنّا الفاخوري في كتابه "تاريخ الأدب العربي": "الوصف هو ذكر أقسام الشيء وشرح هيئته لإحضاره في ذهن السامع" (Al-Fākhūrī 1985, 45). وقال قدامة بن جعفر: "الوصف إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات" (Ibn Ja'far 1956, 41). ويمكن لنا أن نختصر تعريفات مذكورة في عبارة آتية: الوصف هو عبارة عن بيان التفكير أو تصوير الشعور للشاعر أو الأديب عن شيئ من الموجودات أو غير الموجودات.

الوصف في الشعر العربي عبر العصور

الوصف هو أمر مهم في الأدب العربي، وما تزال أن تتم مناقشة هذا الأمر منذ عصر قديم حتى يومنا هذا، ففي كل مرحلة من العصور الأدبية اهتم الشعراء والأدباء بنظرهم إلى هذا الأمر بممارسة أعمالهم الإنتاجية، وفي الحقيقة أن الوصف تصوير ما يتخيل به الأديب أو الشاعر في ذهنه، أو ما يتفكر به من الموجودات ما حوله.

نحن نجد أن الوصف كان سائدا في عصر الجاهلية، وقد وصف الشعراء الجاهليون في أدبهم ما يتخيل في الطبيعة المفتوحة من حوله من الأرض والسماء والصحراء والفضاء الواسع، كما صوّروا كل ما يقع في بصرهم من الخيل والإبل والبغال والحمير وجميع الحيوانات الأخرى، بجانب ذلك وصفوا كل ما أحاط به نظرهم في النباتات والجبال والأودية والسواحل والبحار والسفن وما إلى ذلك، بالإضافة إلى ذلك أنهم وصفوا الطلل والديار والصحن والمراكب وغيرها. وأشهر الشعراء من نظم في وصف الديار والطلل هو أمير الشعراء الجاهلي امرؤ القيس (٥٠٠–٥٤٠م)، قال الشاعر:

قِفَا نَبْكِ مِـنْ ذِكْـرَى حَبِيْبٍ وَمَـنْزِلِ ** بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُـولِ وَحَوْمَـــلِ

(Al-Qais 1964, 8)

في البيتين المذكورين وصف الشاعر منزل حبيبته الذي وقع بين الموضعين الدخول وحومل، وما يزال رسمها حتى الآن.

ولما جاء الإسلام خص الشعر في خدمة الدعوة الدينية الربانية ودفاع الإسلام والمسلمين عن الإساءة والإدانة من قبل الكفار والمشركين بدلا عن خدمة القبائل في الجاهلية، في البداية شغل المسلمون بأمر

الدين والقرآن والحديث، وتركوا أنفسهم من قول الشعر والأدب، كما ظهر من قول ابن خلدون: "انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ..." (Ibn Khaldūn, 1965, 427).

عندما اشتد الطعن والإساءة من قبل الكفار والمشركين ضد الإسلام والمسلمين، أمر مصطفى صلى الله عليه وسلم الشعراء المسلمين بالإجابة عن الإساءة، وقامت عصابة من الصحابة كحسان بن ثابت (٥٦٣–٦٧٤م) وكعب بن زهير (–٦٤٧م) وغيرهما بالإجابة عن الإساءة والإدانة وارتقاء مجد القرآن والحديث. فوصفوا عناصر العقائد وأحكام الشرائع وثناء النبوة وأحوال المعارك وأحداث الحروب ومدح المجاهدين وفتوحات الغزو بعيدا عن تكسب العطاء وبيان الفواحش. والبيتان التاليان لكعب بن مالك (٥٩٧–٦٧٢م) أجمل النماذج في الوصف لهذا العصر. قال الشاعر:

فجئنا إلى موج البحر وسطه ** أحابيش منهم حاسر ومقنّع

(Ibn Mālik 1997, 225)

قد وصف الشاعر بأن جيش المشركين كالبحر في كثرة العدد وقوة التدافع، ولكن جيش المسلمين كالجبال في العزيمة وشدة القتال، وتَجْمَعُ فيهم أشرف الناس وأكرمهم.

لما انتقلت زعامة الخلافة إلى بني أمية، وتحرّكت العاصمة من المدينة المنورة إلى دمشق، ازدادت المنافسات والمسابقات حول السياسة والدين في بيئة جديدة، فنشأت الأحزاب السياسية المختلفة كالأموية والزبيرية والخوارج والشيعة وغيرها، كما ارتفعت الفرق الدينية المتعددة مثل الجبرية والقدرية والمرجئة وما إلى ذلك، وتركت هذه الأحزاب والفرق آثارها الشديدة في حركة الأدب خاصة في الشعر بازدياد العصبية والتنافسية. بالإضافة إلى ذلك، انعكس تأثير الاسترخاء الديني وطابع البيئة الجديدة في الأعمال الأدبية. فرجعت الفنون الجاهلية إلى الأدب مثل النسيب والخمر والهجاء، كما تعددت الموضوعات الجديدة كالنقائض، والغزل العفيف.

ووفّرت هذه الأسباب العديدة فرصة واسعة في اتساع الوصف للشعر الأموي، حيث ظل الشعراء أن يمتزجوا فن الوصف بالأغراض المختلفة من المدح والهجاء والرثاء والخمر على منوال الجاهلية، كما أنهم راحوا أن يصفوا أشياء أخرى من الفتوحات والمعارك الدينية والثقافة الجديدة والحضارة المتنوعة. ومن أصحاب الشعر الذين اشتهروا بالوصف في هذه الفترة ذو الرمة (٦٩٦–٧٣٥م) (Ibn Mālik 2012, 32). فيقول واصفا حالة إحدى الصحراء في الليل:

وتيهاءَ تُودي بين أرجالها الصبا ** عليها من الظلماء جُلّ وخندق

(Dhû al-Rumma 1964, 486)

بيّن الشاعر في البيت المذكور حالة الصحراء، بأنها ظلت محجوبة بالظلمة، حينما يهب الريح عليها، فيمنع العين بالنظر عليها.

وفي سنة ٧٥٠م تولى العباسيون منصب الخلافة في دمشق، ثم نقلوا العاصمة إلى مدينة بغداد بعد إقامتها في العراق، وصارت بغداد إحدى المراكز العالمية للعلوم والفنون والحضارة والثقافة في ذلك الحين، وأمر الخلفاء بترجمة العلوم والفنون إلى العربية من اللغات العالمية من اليونانية واللاتينية والفارسية والهندية وغيرها، ومن جهة أخرى وجد العرب فرصة الامتزاج بالشعوب المختلفة، نتيجة لذلك أصبحت الحضارة والثقافة في بغداد أرقى وأزهى في العالم.

هكذا ارتقى الأدب خاصة الشعر أيضا إلى الغاية من جميع النواحي من المعاني والأخيلة والألفاظ والتفكير في هذا العصر، واتسع نطاقه في الموضوعات والأساليب، ولكن في البداية جرى الشعر على الطريق القديم، واستمر الوصف على النمط السابق، فراح الشعراء أن يصفوا الطلل والناقة والخمر والصحراء والحيوانات وما إلى ذلك. ثم لما تطورت الأحوال الاجتماعية والثقافية في بغداد، تأثر الشعر بهذا التطور إلى حد بعيد، مما أدى الإنتاجّ الأدبيّ إلى طور جديد من الإبداع، ووصف الشعراء الرياض والزهور والقصور والمباني والمجالس، كما أنهم صوّروا الملابس والمطاعم والحيوانات والطيور، إضافة إلى ذلك أنهم رسموا البحار والجبال والأنهار والأشجار وما إلى ذلك، بالجملة أن الشعراء في هذا العصر حاولوا أن يصوّروا على ما وقع عليه نظرهم من الحيوانات والنباتات والطبيعات والمأكولات والمشروبات والمواسم وغيرها. يقول الشاعر أبو تمام (٨٠٣–٨٤٥م) واصفا الربيع :

إنَّ الرَبيـعَ أثـرُ الزمـان ** لـو كانَ ذا روح وذاجُثمـان

(Abû Tammaṁ 1918, 446)

هنا وصف الشاعر تأثير الربيع على الروح والجسد. عندما يأتي الربيع في الطبيعة. تستمر الحيوية والارتياح في كل شيء.

وعندما استمر الحكم العباسي في بغداد، أقام العرب إمارة إسلامية في أندلس في نفس الوقت، فاشتهرت اللغة العربية هناك، وكتب الشعراء والأدباء أعمالهم الأدبية بهذه اللغة، وظهرت في أدبهم موضوعات جرت في العرب الشرقي آنذاك، وتمت إضافة الوصف في جميع الأغراض والموضوعات، والسبب الرئيسي لذلك هو الجمال الطبيعي الذي فتن الشعراء والكتاب من جهة، ومن جهة أخرى أن حرية المرأة التي ألهمتهم لتصوير الصورة الفاخرة للحياة الاجتماعية وتأليف الغزل والنسيب. علاوة على ذلك، فقد أدت تجمعات الأغاني والرقوص، ومجالس اللهو واللعب، وتوفير الخمر إلى توسيع نطاق ممارسة الشعر الوصفي بشكل كبير.

وقد ظهرت عبقرية نادرة بين الأندلسيين في الشعر الوصفي، لاسيما عندما تقدموا إلى وصف الطبيعة الخلابة وجمالها الفاتنة، وتجمعات الأنس والطرب، ومجالس اللهو والغناء، ومظاهر العمران والحضارة، وملامح الحروب والغزوات، ومظاهر الحنين إلى الوطن، وأشكال الشوق الى الأقرباء (Al-Rīkabī, 1966, 120). وقد اشتهر كثير من الشعراء في الأندلس في هذا المجال. فالبيتان التاليان لابن خفاجة (١٠٥٨–١١٣٨م) من أجملها في هذا الموضوع، قال الشاعر واصفا جمال الطبيعة في الأندلس:

يـــا أَهْـــلَ أنـدلس للّه دركـــم ** مـــاء وظِـــلّ وأنـهـار وأشجـار

(Ibn Khaffājah 1961, 133)

هناك صوّر الشاعر صورة جمال الطبيعة والحدائق الغنّاء والثمار اليانعة والمياه الجارية والطيور الصادحة، وممن تغنى بالحسن والجمال في الأندلس.

لمحة عن تذكرة الشاعر

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرشي المعروف بـابن زيدون والمُلقّب بـ"بحتري الأندلس" أو "بحتري المغرب"[١]. ولد سنة ١٠٠٣م /٣٩٤هـ في أسرة عريقة من العلماء والفقهاء في قرطبة من بني مخزوم في خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٩٦٥–١٠١٣م) (Al-Bustānī, 1967, 114). ونشأ في بيئة مثقفة، وبدأ أن يتلقى العلم على يد والده[٢] وغيره من العلماء، ثم اعتنى به جده لأمه للتعليم والتثقيف بعد وفاة أبيه في الحادية عشر من عمره، وبعده تردّد ابن زيدون على العلماء والمثقفين المشهورين للجامعة الكبيرة في قرطبة، وتعلّم منهم شيئا كثيرا من العلوم والفنون والثقافة، حتى أصبح عَلَمًا بارزا من أعلام الأدب والفكر بعد زمن قصير (Al-Fākhūrī 1985, 969). وكان مولعا بعلوم العرب وفنون الأدب واللغة، فحفظ أشياء كثيرة وسطوراً عديدة من آثار الشعراء والأدباء وأمثال العرب وقصصهم وحوادثهم ومسائل اللغة وغيرها. وبجانب ذلك كانت له ثقافة فلسفية أيضاً تشير إليها ما ظهر له في رسالته الهزلية من عدة المصطلاحة الفلسفية وأسماء بعض الفلاسفة (Al-Rīkabī, 1966, 164-165).

بعد الدراسة اتصل ابن زيدون بابن جهور حاكم قرطبة آنذاك، حتى توظف وزيرا وسفيرا له، وصار رجلا موثوقا عنده في أمور الإمارة، ثمّ اتصل بالخليفة المستكفي بالله (٩٠٥–٩٤٩م)، وشغِف بنته "ولادة"[٣]، ووقع في حبّها إلى حدّ بعيد، وعلِقته ولادة أيضاً، وهامت في حبه بالغاية، ولكن تبدلت الأحوال فيما بينهما بعد ردح من الزمن، و تحوّل الحب والغرامة إلى الغضب والاشمئزاز لسبب ما، حتى شكت به إلى الحاكم أبي الحزم بن جهور في ذلك الوقت، وأثارته لينتقم عليه. فغضب أبو

الحزم عليه، وأمر بحبسه في السجن، وبعد مدة من الزمان تمكّن ليهرب يوما من السجن، وراح مختفيا من أنظارهم في قرطبة، حتى عفا عنه أبو الحزم (Al-Bustānī, 1967, 119). بعد وفاة أبي الحزم سنة ١٠٤٣م/ ٤٣٥هـ، تولّاه ابنه أبو الوليد السلطة، فاتصل به ابن زيدون في بلاطه، ووجد منه حظوة كبيرة، وتولى منصب الوزارة، ثم عُيّن سفيرا بينه وبين أمراء الطوائف في الأندلس، حيث حصلت عليه بذلك الرفعة والكرامة عند هؤلاء الأمراء (Al-Rīkabī, 1966, 180). ثم اجتذبه صاحب إشبيلية المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد، فلحق ابن زيدون ببلاط العباد في إشبيلية الذي قربه إليه، وألقى إليه زعامة ملكه، فكان هناك بمثابة الوزير حتي توفي المعتضد بالله، وانتقلت الإمارة إلى ابنه المعتمد، فسلك على خطة أبيه، ووضع ابن زيدون على حاله اعتمادا على إلقاء زعامة الإمارة إليه، حتى قضى الشاعر بقية حياته في إشبيلية، وتوفي فيها في أول رجب ٤٦٣هـ/ ٥ إبريل١٠٧١ (Al- Zayyāt, 1999, 415).

العبقرية الشعرية

كان الشاعر ابن زيدون من أبرز شعراء وأدباء الأندلس بالخصوص في عصر ملوك الطوائف، وقد قدم مساهمات جليلة في الأدب العربي الأندلسي منذ خمسة عقود حتى تجاوزت شهرته وسمعته بين معاصريه في المغرب والمشرق بقوة شاعريته، حيث شهد معظم الناقدين والمؤرخين بهذا، فقال أبو الحسن بن بسام الشنتريني (١٠٥٨م/٤٥٠هـ–١١٤٧م/٥٤٢هـ) عنه: "إن ابن زيدون كان صاحب منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء بني مخزوم، أحد من جرّ الأيام جرا، وفات الأنام طرّا، وصرّف السلطان نفعا وضرا، وسع البيان نظما ونثرا، ... (Al-Shantarīnī 1975, 207). ولاحظ عنه الفتح بن خاقان "إنه بهر بنظامه، وظهر كالبدر ليلة تمامه، فجاء من القول بسحر، وقلده أبهى نحر، لم يصرفه إلا بين ريحان وراح، ولم يطلعه إلا في سماء مؤانسات وأفراح، ..." (Ibn Khāqān 1989, 225).

بدأ الشاعر ابن زيدون ممارسة الشعر في سن العشرين، ولكن اشتهر بكتابة الشعر في أيام حكم الأمير ابن جهور في قرطبة، وقد تأيده الشاعر في أيام خصومة الخلافة التي تسببت إلى انتهاء الخلافة الأموية، ونتيجة لذلك عينه ابن جهور وزيرا للدولة وكاتباً للبلاط، ثم أقره ابنه أبو الوليد على عهده بعد وفاة أبيه، وبعده عمل الشاعر وزيرا للإمارة وشاعرا للقصر للمتعضد بالله في إشبيلية حتى في عهد ابنه المعتمد عقب وفاته (Al- Zayyāt, 1999, 415).

نظم الشاعر أشعارا كثيرة في موضوعات مختلفة، ففي شبابه أحبّ ولادة بنت المستكفي، فكتب بها شعر الغزل العذري، وامتدح جمالها وحسنها، كما كتب مدائحا كثيرة بالخلفاء والأمراء من ابن

جهور والمعتضد بالله وما إلى ذلك، وقدم أيضا كتابة الشعر في الرثاء والطبيعة والعتاب والوصف وغيره، حتى تفوق بقدرته الشعرية وبراعته الأدبية بين معاصريه، واشتهر بلقب "بحتري المغرب" تشبيها بالشاعر البحتري.

تميز شعر ابن زيدون بالسهولة والعذوبة، كما تفوق نظمه ببساطة المعنى وحسن التعبير، والأسلوب الأنيق حتى ثبتت له منزلة مرموقة في الأدب لاسيما في الشعر في مشارق العرب ومغاربه، حيث لاحظت سلمى خضراء الجيوسي (١٩٢٦–٢٠٢٣م) عن براعة شاعريته بملاحظة تالية:

> "Ibn Zaydun brought into Andalusi poetry something of balance, the rhetorical command, the passionate power and grandeur of style ... he rescued Andalusi poetry from the self-indulgence of the poets of externalized description." (Jayyūsī, 1992, 343-47)

البعد الوصفي في شعر ابن زيدون الأندلسي

إن الشاعر ابن زيدون كان أشهر الشعراء للأدب العربي الأندلسي، قضت حياته بين الصعود والهبوط في مختلف المراحل من عمره، وظهرت شعوره وإحساسه من حياته بنظم الأشعار والقصائد، فتنوعت محتويات أشعاره بتأثير البيئة والأحوال في أغراض متعددة من الوصف والرثاء والمدح والوطنية والطبيعة والحنين وما إلى ذلك، لكن اشتهر موضوع الوصف من أغراض أشعاره بتنوع الموضوعات وتعدد المحتويات في الأدب الأندلسي. فأهم الجوانب لهذه الدراسة كما في الذيل:

١. وصف الطبيعة

تفوّق الأدباء والشعراء الأندلسيون في مجال بيان الطبيعة ووصفها بمختلف الطرق ومتعدد المناهج من نظرائهم الشرقية، لأن الأندلس موفورة من عناصر الطبيعة من البساتين والرياض والأزهار والأثمار والأنهار والبحار والسحاب والرعد والأمطار وما إلى ذلك، ففتن كل من الشعراء والأدباء بجمال الطبيعة وحسنها بالغاية، وحاول أن يساهم مساهمة قيمة في هذا المجال على قدر استطاعتهم، فخلب الشاعر ابن زيدون أيضا بالطبيعة الخلابة وأشيائها الساحرة، وقدّم هذا الموضوع في إنتاجه الأدبي بأهمية كبيرة، وكَتَبَ قصائدا كثيرة في الغرض المذكور، فصوّر فيها أطراف الطبيعة وعناصرها بالحقيقة، وأظهر شعوره وإحساسه بالدقة واللطافة. فجاء الوصف للطبيعة وعناصرها الذي يفيض بالمشاعر الخفاقة والعاطفة الجياشة والأحاسيس المشبوبة كما وجدت في الحقيقة. فالأبيات التالية من أجملها في هذا الموضوع، وقال الشاعر:

إنّــي ذكَرتُــكِ بِـالــزّهْــراءَ مُـشتــاقاً ** وَالأُفقُ طَلقٌ وَمَــرأى الأَرضِ قَد راقــا
وَلِلنَسيمِ اِعتِلالٌ فــي أَصــائِــلِـهِ ** كَأَنَّــــهُ رَقَّ لــي فَــاعتَلَّ إشفــاقــا

(Ibn Zaidūn 2005, 51)

٢. وصف الحبيبة

شغف الشاعر ابن زيدون بولادة في أيام الشبابة، وعشقته ولّادةُ أيضا في أيام عمله لابن جهور، وقضيا كلاهما بعض الأوقات بالهوى والغرامة، حتى رفعت علاقته بها إلى مستوى رفيع في مرحلة من المراحل، ولكن بعد فترة من الزمن ساءت العلاقة بينهما، فنظم الشاعر مجموعة من الأبيات الرائعة في شغفها وحبها، كما كتبت طائفة من القصائد الحزينة في فراقها وبُعدها.

ففي القصائد التي نظمها الشاعر في غرامة حبيبته، وصف فيها الجمال والفطنة والذكاء والعبقرية لحبيبته، كما صوّر فيها تصويرا دقيقا عن الذات والصفات لعاشقته، وكانت ولادة من أجمل النساء في عصرها وأذكى السيدات في وقتها، فقال الشاعر تصويرا دقيقا لحبيبته:

ربيب ملك كأن الله أنشأه ** مسكًا وقدر إنشاء الوَرى طينا
أوصاغه ورِقًا محضًا وتوجه ** من ناصع التبر إبداعًا وتحسينا

(Ibn Zaidūn 2005, 13)

٣. الوصف في المدح

قضى الشاعر ابن زيدون معظم حياته العملية في مختلفة البلاط والقصور للملوك والأمراء من ابن جهور وابنه أبي الوليد في قرطبة، والمعتضد بالله وابنه المعتمد في إشبيلية، فمدح هؤلاء الملوك والأمراء في أشعار كثيرة، كما مدح بعض الأشخاص البارزة من الطوائف، وكانت طريقة مدحه أن يصف الصفات التي يجدها في ممدوحه من البطل والشجاعة والكرم والوفاء، كما كانت أسلوبه أيضا أن يبين الإنجازات التي ينظرها إلى ممدوحه في قيادة الحكم والجيش والقوة، والإنتصارات في المعارك.

يقول الشاعر ابن زيدون في مدح المعتضد بالله ابن عباد صاحب إشبيلية بمدحة خالصة له:

لِيَهنِ الهُدى إنجاحُ سَعيكَ في العِدا ** وَأَن راحَ صُنعُ اللَهِ نَحوَكَ وَاغتَدى
وَنَهجُكَ سُبلَ الرُشدِ في قَمعِ مَن غَوى ** وَعَدلُكَ في اِستِئصالِ مَن جارَ وَاعتَدى

(Ibn Zaidūn 2005, 246-47)

٤. وصف مجالس الخمرة

كانت الخمريات أكثر شيوعا بين الشعراء في الأندلس خاصة في قرطبة وغرناطة وإشبيلية، لأن هولاء المدن كانت مزدهرة بالثقافة، ولاسيما بالغناء والرقص والموسيقى، فهذه الأشياء ساعدت انتشار الخمريات في الأدب الأندلسي، وحاول كل شاعر أن يساهم في هذا الموضوع، وشاعرنا ابن زيدون أيضا نظم بعض الأشعار في هذا الفن، ويوجد في ديوانه ثلاث مقطعات فقط في الخمريات، وقد بدأ الشاعر بنظم هذا النوع من الأشعار بسبب انشغاله بالأحزان والهموم التي صرفته عن حياة الترف واللهو بالخصوص بعد أن تتركه حبيبته ولادة (Khadar 2005, 30). فوصف في هذه الأبيات

المجالس والغلمان والكؤوس لاسيما منظر شرب الخمر مع الأصدقاء في مجالس اللهو والترف بحالة المجون، فيقول الشاعر وهو يصف جلسة من جلسات اللهو والسرور في ليلة في إحدى الرياض لمدينة إشبيلية في حالة شرب الخمر مع أصدقائه:

ولَيلٍ أَدَمْنا فيه شُرْبَ مُدامةٍ ** إلى أن بدا للصبح في الليل تأشيرُ
وجاءت نجوم الصبح تضربُ في الدُّجى ** فولت نجومُ الليل والليلُ مقهور
(Ibn Zaidūn 2005, 292)

٥. الوصف في الحنين

إن الشوق إلى مسقط رأسه هو غريزة الإنسان الطبيعية. يشعر كل إنسان بالانجذاب نحو الوطن الأم طبيعيا. خاصة يصبح هذا الأمر أكثر وضوحًا، عندما يكون الناس في بُعْدٍ عن بلاده، لكنها يتضح هذا أكثر وضوحا في قلوب الشعراء والكتاب، وقد ظهر هذا الشيئ في شعر شاعرنا المذكور ابن زيدون، وُلد ونشأ في قرطبة، وفي وقت لاحق، كجزء من حياته المهنية، غادر وطنه الأم وبقي في مدينة بعيدة. لكنه لم ينس وطنه لمرة واحدة، وكلما ظهرت ذكريات وطنه في قلبه، عبّر عن مشاعره وإحساساته نحو مسقط رأسه من خلال الشعر. لقد وصف بشكل متقن الجوانب المختلفة لوطنه الأم مثل ذكريات الولادة والنشأة وموقع منزله والمناظر الطبيعية هناك في القصيدة. قال الشاعر واصفا شعوره وإحساسه للوطن:

يا دمعُ صُب ما شئت تَصُوبا ** ويا فُؤادي آنَ أنْ تذوبا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا ** في الغرب إذ رحتُ به غريبا
(Ibn Zaidūn 2005, 17)

٦. الوصف في الحبسيات

الأشعار الحبسيات أهم الأجزاء من إنتاجات الأدبية للشاعر ابن زيدون، وهي التي كتبها الشاعر في الحبس أو السجن واصفا استعطافه عند الأمير والحالات السيئة فيها، وقد عاش الشاعر ردحا من الزمان في قصر الأمير أبي الحزم بن جهور، وقضى هناك حياة رغدة، وكان من سفيره وخواصه لعدة من ملوك الطوائف، وذات مرة أُتُّهِمَ الشاعر بالخيانة، فغضب عليه الأمير ابن جهور، وأرسله الأمير إلى السجن، وذاق طعم الحبس بسبب سعاية الأعداء، ونظم قصائدا يستعطفه ويطلب العفو عنده، ولكن هذا بدون جدوى. بالحقيقة، أن الشاعر وصف في هذه القصائد مدائح الأمير، ثم طلب العطف والعفو عنده، فيقول الشاعر يمدحه:

الهَوى في طُلوعِ تِلكَ النُجومِ ** وَالمُنى في هُبوبِ ذاكَ النَسيمِ
سَرَّنا عَيشُنا الرَقيقُ الحَواشي ** لَو يَدومُ السُرورُ لِلمُستَديمِ
(Ibn Zaidūn 2005, 130)

وفي قصيدة أخرى بين الشاعر معاناة السجن والرغبة الشديدة في التحرر عنه، ولكنه يصف أحواله السيئة بعزة ومروءة بالرغم من حبسه، فيقول:

لا يهنئ الشـامـت المرتـاح خاطرُه ** أنـي مُعنّى الأمـانـي ضـائـعُ الخطر
إن طال في السجن إيداعي فلا عجب ** قد يودع الجفن حد الصـارم الـذكر؟

(Ibn Zaidūn 2005, 158)

في الأبيات المذكورة ظهرت قدرة الشاعر على الصبر في المعانات والمصائب والهمة في مواجهة الشدائد والأزمات، فلا تنكسر نفسه أمام أزمات الحياة ولا ينفشل جرئته في الشدائد والمصائب.

٧. الوصف في الرثاء

الرثاء هو أهم الأغراض في الشعر العربي، وقد كان هذا الغرض سائدا في الأعمال الأدبية لكل شعراء منذ القدم، وكتب الشاعر ابن زيدون قصائد كثيرة في هذا الموضوع، وكان مراثيه في أبي الحزم، والمعتضد وأم ابن جهور وأم المعتضد وابنته والقاضي أبي بكر بن ذكوان، وكانت مناهج مراثيه أن يبدأ الحداد بوصف الفخر والمجد للمُصَاب والمتوفى أو بوصف المعاناة والألم الذي لا نهاية له بسبب نكبات ومصائب العصر والزمان، كما كانت طريقته أن يستهلّ الرثاء ببيان التعازي لأقارب وأفراد عائلة المتوفى. وبجانب ذلك، كانت أسلوبه أن يقدم الصفات الأخرى للفقيد مثل الكرم والشجاعة والحماسة وتقواه وما إلى ذلك. علاوة على ذلك، قد اتبع الشاعر ابن زيدون الطريقة التي يستخدمها الشعراء عادة في تأليف المراثي. وحاول أن يسلط الضوء على الصفات الذاتية والعارضة. حتى أنه قلد الطريقة التقليدية لوصف الصفات منذ عصر الجاهلي. وقد لجأ مثل الشعراء القدماء إلى المبالغة. لكن لم يبالغ مما يثير الكراهية (Al-Bustānī, 1967, 119). قال الشاعر يرثي المعتضد:

فَقَدنـاكَ فِقدانَ السَحـابَـةِ لَـم يَـزَل ** لَهـا أَثَرٌ يُثني بـهِ السَهلُ وَالوَعرُ
مَسـاعيكَ حَليٌ لِـلَّيـالـي مُـرَصَّـعٌ ** وَذِكرُكَ فـي أَردان أَيّـامِهـا عِطرُ

(Ibn Zaidūn 2005, 198)

٨. الوصف في الهجاء

نظم ابن زيدون شعرا في فن الهجاء إلا شيئا يسيرا، إذا ما قيس بالموضوعات الأخرى في ديوانه، والقاري أو الباحث لا يجد في شعره إلا مقطوعات عديدة في هذا الغرض. وقد هجا الشاعر الحسّاد والوشاة، ونوائب الدهر، وأحداث الزمان وما إلى ذلك في هذه المقطوعات، وعمد خلال هذه الأشعار أن يعبر بصورة ظاهرة عن أحوال الفتن والقلق التي انبعث عن نفسه المضطربة بأحداث الزمان ونوائب الدهر من جانب واحد، ومن جانب آخر أن يبين بطريقة واضحة عن تبرئة نفسه وسمو قدره

وفخره مع إظهار العدوان والحساد من قبل الوشاة والحسّاد. يقول الشاعر يراوح بين هجاء الأعداء والحسّاد وعلوّ شأنه بنفسه:

وقد تسمع الليثَ الجِحاشُ نهيفها ** وتُعلي إلى البدر النباح كلابُ
إذا راق حسن الروض أو فاح طيبه ** فما ضره إن ظنّ فيه ذُبابُ

(Ibn Zaidūn 2005, 118)

٩. الوصف في العتاب

نظم الشاعر ابن زيدون بعض القصائد في الشكوى والعتاب، وكانت هذه القصائد معاتبا للوزير ابن عبدوس، وولادة بنت المستكفي، وابن جهور وغيرهم، وكان السبب لذلك أن الشاعر يحب ولادة بنت المستكفي كما ذُكر من قبل، ولكن وقع الخلاف بينهما في وقت ما، حتى تبدلت الأحوال فيما بينهما، ومالت ولادة إلى الوزير أبي عامر بن عبدوس. وذات مرة أرسل ابن عبدوس رسالة إلى ولادة يخبرها فيها عن مشاعره وحبه، ولكن أدرك ابن زيدون بهذا الأمر قبل أن تصل إلى ولادة، وكتب رسالة سخرية عن ردها إلى ابن عبدوس بلسان حبيبته، وبعد أن أدرك ابن عبدوس ذلك، لجأ إلى ابن جهور لينتقم منه، وأمر ابن جهور بسجنه، وراح وقتا من الزمان في السجن. في داخل السجن كتب ابن زيدون هذه الأشعار. وكانت بعض القصائد منها موجهة إلى ابن جهور لجذب أنظاره، فوصف الشاعر فيها المدح والثناء له معاتبا لابن عبدوس، ثم دعا إليه من أجل إطلاق سراحه. وكانت قصيدة أخرى وصف فيها حب ولادة بنت المستكفي. وفي وقت لاحق، طلب إليها للاستشفاع إلى ابن جهور مطالبا لسراحه من السجن. في القصيدة التالية، ينتقدها الشاعر بشدة ابن عبدوس مزاحمته في حب الولادة. وقال معاتبا له في بداية القصيدة:

أثَرْتَ هِزَبْرَ الشّرَى إذْ رَبَض ** ونبّهْتّهُ إذْ هَدَا فاغْتَمَض
وَمَا زِلْتَ تَبْسُطُ مُسْتَرْسِلاً ** إلَيْهِ يَدَ البَغْيِ لمّا انْقَبَض

(Ibn Zaidūn 2005, 95)

النهاية

كان ابن زيدون أشهر الشعراء في الأدب العربي خاصة في الشعر الأندلسي. وقد قدم إنتاجا أدبيا أكثر شمولا في تعدد الموضوعات وتفنن المحتويات. خاصة اتضحت مهارته وبراعته في تفنّن غرض الوصف بأساليب متنوعة وطريقة متعددة، قام بتوسيع الشعر الوصفي في المجتمع الاندلسي من خلال شخصيته غير العادية وقدرته السحرية على الكتابة. واكتسبت قصائده الوصفية شعبية هائلة بسبب معانيها النفيسة وأساليبها البارعة وطرق بيانها المتازة. وقد أخذ الشعراء اللاحقون على غرار مثاله هذا الموضوع إلى ذروة أعلى من الشهرة، وأنها أصبحت قدوة مثالية في تنوع محتويات الشعر الوصفي في الأندلس.

الهوامش

١. كان يُلَقَّب ابن زيدون بهذا الاسم تشبيها بالشاعر البحتريّ (٨٢٠–٨٩٧م)، لأنه كان من أقدر وأبرع شعراء معاصريه الذين عاشوا في الأندلس (Al-Husain, 2009, 9).

٢. وكان أبوه رجلا بارزا من القضاة والعلماء والوجهاء والأغنياء من قرطبة، فأحضر له العلماء والمعلمين والأدباء والمثقفين ليتعلموه جيدا،(Al-Rīkabī, 1966, 163).

٣. وكانت ولادة بنت الخليفة المستكفي بالله من أجمل النساء وأحسنها في وقتها، كما أنها كانت من أشهر الشعراء وأبرز أهل الأدب والموسيقى في عصرها، وكان بيتها مجالس أهل العلم والفن، ولما توفي أبوها سنة ١٠٢٥م، فتحت بيتها لأهل الشعر والأدب والموسيقى (Al-Fākhūrī 1985, 969).

المصادر والمراجع

1. Abū Tammam, Ḥabīb bin Aws al- Ṭaī. 1918. Al-Diwan. Al-Qāhirah: Dār al-Ma‘ārif
2. Al-Bustānī, Butrus. 1937. *Udabā Al-‘Arab fī al-Andalus wa ‘Asr Al-Inbī‘ath.* Bairūt: Dār Nazīr ‘Abbud.
3. Al-Fākhūrī, Hannā. 1986. *Tārikh al-Adab al-‘Arabī.* Bairūt: Dār al-Jīl.
4. Al-Fākhūrī, Hannā. 1986. *Al-Jāmi‘ fī Tārikh al-‘Arabī al-Ḥadīth.* Bairūt: Dār al-Jīl.
5. *Al-Qūrān Al-Karīm.*
6. Ibn Khāqān, Al-Fatḥ bin Muhammad. 1989. *Qalāid al-‘Iqyān.* Jordan: Maktabah al-Manār
7. Al-Fīrūzābādī, Majd al-Dīn. 2008. *Al-Qāmūs al-Mūḥīt.* Al-Qāhirah: Dār al-ḥadīth.
8. Al- Hāshimī, Aḥmad. 1969. *Jawāhir al-Adab fī Adabiyyāt wa Inshāi Luga ‘Arab.* Al-Jild: 1. Mīṣr: Al-Maktabah at-Tijāriyyah al-Kubrā.
9. Al-Husain, Rīm ‘Aāid Nāif. 2009. *Al- Ṣūrah wa al-Fannīyyah fī Shi‘ri Ibn Zaidūn.* Utrūhah Mājistīr. Jāmi‘ah al-‘Ulum al-Islamīyyah al-ʿAālammīyyah, Falasṭīn.
10. Al-Labadī, Hiba Ibrahīm Mansūr. 2012. *Al- Wasf fī Shi‘ri al-Malik al-Andalusī.* Utrūhah Mājistīr. Jāmi‘ah al-Najah al-Watanīyyah al-ʿAālammīyyah, Nablūs, Falasṭīn.
11. Al-Qais, Imru'. 1964. Al-Diwan. Al-Qāhirah: Dār al-Ma‘ārif.

12. Al-Rīkabī, Dr. Jawdat. 1966. *Fī al-Adab al-Andalusī.* Al-Qāhirah: Dār al-Ma'ārif.

13. Al-Zayyāt, Ahmad Hassan. 1999. *Tārikh al-Adab al-'Arabī.* Bairūt: Dār al-Ma'rifah.

14. Anīs, Ibrāhīm wa al-Ākharūn. 2004. *Al-Mu'jam Al-Wasīṭ.* Mīṣr: Maktabah al-Sharūq ad-Duwaliyyah.

15. Khadar. Dr. Fawzī, 2004. *'Anāṣir al-Ibdā' al-Fannī fī Shi'r Ibn Zaidūn,* Al- Kuwait: Muassasah Jāizah 'Abd al-'Aziz Sa'ud al-Bābitīn li al-Ibdā' al-Shi'rī

16. Al-Shantarīnī, Abū al-Hasan 'Alī Ibn Bassām. 1975. *Al-Zakhīrah fī Mahāsin Ahl al-Jazīrah.* Tunisia: Dar al-'Arabīyyah li al-Kuttāb, V. 1

17. Dhū al-Rumma, Gailān ibn 'Uqbah al-'Adavi. 1964. *Al-Dīwan.* Dimashq: Al-Maktabah al-Islamiyyah li al-Tiba'a wa al-Nashr

18. Ibn Ja'far, Abū al-Farj Qudāma. 1302 H. *Naqd al-Shi'r.* Qustuntīniyyah: Matbaā al-Jawāib.

19. Ibn Khaffājah, Abū Isḥaq Ibrāhīm ibn Abī al-Fatḥ. 2006. *Al-Dīwan.* Bairūt: Dār al-Ma'rifah.

20. Ibn Khaldūn, 'Abd al-Rahmān Ibn Muhammad al-Hadramī. 1965. Muqaddimah Ibn Khaldūn. Al-Qāhirah: Dār al-Nahdah.

21. Ibn Mālik, Ka'ab, 1997. *Al-Dīwan.* Bagdād: Maktabah al-Nahdah

22. Ibn Manẓūr, Abū al-Faḍal Jamal al-Dīn Muḥammad bin Mukarram. 2005. *Lisan al- 'Arab.* Al-Qāhirah: Dār al-Ma'ārif.

23. Ibn Zaidūn, Abū al-Walīd Aḥmad. 2005. *Al-Dīwan.* Bairūt: Dār al-Ma'rifah.

24. Jayyūsī, Salma Khadra. 1992. *The Legacy of Muslim Spain*. Leiden: E. J. Brill.